The salvation problem by Nietzsche

Samahr Al-Yousef*

(Received 15 / 3 / 2020. Accepted 13 / 8 / 2020)

□ ABSTRACT □

This research represents an attempt to find out about the problem of salvation, as dealt with by the German philosopher Friedrich Nietzsche, and its results, which later became the focus of attention of many thinkers and philosophers.

If salvation in the religious sense refers to that movement in which a person moves from the lowest world to the higher world, from the human to the divine, and from the physical to the spiritual, then salvation is by Nietzsche and based on his philosophical sense hostile and hostile to everything that is divine and paradoxically, it has taken the opposite form, through Working to overturn the religious foundations and rules upon which the idea of salvation arose, after salvation in the common and familiar sense was an expression of the movement of height and transcendence through liberation from the whole of what is earthly and physically, then with Nietzsche it turned into an inverted movement, so that it became a relentless pursuit of liberation from altitude and paradox through Link to everything that is seen J and sensory.

Key words: religious salvation, inverted salvation, sin, the metaphysic world.

* **master's degree-Department of philosophy-Faculty of Arts and Humanities-Damascus-Syria**

مشكلة الخلاص عند نيتشه

سماهر اليوسف*

(تاريخ الإيداع 15 / 3 / 2020. قبل للنشر في 13 / 8 / 2020)

□ ملخّص □

يمثل هذا البحث محاولة للوقوف على مشكلة الخلاص مثلما عالجها الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه، وما تمخض عنها من نتائج أصبحت لاحقاً موضع اهتمام العديد من المفكرين والفلاسفة.

فإذا كان الخلاص بالمعنى الديني يحيل إلى تلك الحركة التي ينتقل بها الإنسان من العالم الأدنى إلى العالم الأعلى، ومن الإنساني إلى الإلهي، ومن الجسدي إلى الروحي؛ فإن الخلاص لدى نيتشه وانطلاقاً من حسه الفلسفي المعادي والمناوئ لكل ما هو إلهي ومفارق اتخذ شكلاً معكوساً، عبر العمل على قلب الأسس والقواعد الدينية التي نهضت عليها فكرة الخلاص، فبعد أن كان الخلاص بالمعنى الشائع والمألوف تعبيراً عن حركة علو وسمو عبر التحرر من مجمل ما هو أرضي وجسدي، فإنه مع نيتشه تحول إلى حركة مقلوبة، بحيث أصبح سعياً دؤوباً للتحرر من العلو والمفارقة عبر الارتباط بكل ما هو أرضي وحسي.

الكلمات المفتاحية: الخلاص الديني، الخلاص المعكوس، الخطيئة، العالم الماورائي.

* ماجستير–قسم الفلسفة– كلية الآداب والعلوم الإنسانية–جامعة دمشق–سورية.

مقدمة:

لقد حَظِيَت فكرة الخلاص باهتمام الباحثين والمفكرين، خاصة فيما يتعلق بتحديد معناه، فضلاً عن رسم مساره، وتحديد الطرق المؤدية إليه. ولكن ثمةَ فرق شاسع بين معنى الخلاص عند مفكر ديني، وبين معناه عند مفكرٍ يرفض كل ماهو ميتافيزيقي، فإذا كان الأول يقرن الخلاص بالمفاهيم والتعاليم الدينية التي يعتنقها، معتقداً بوجود مخلّص مستقل عن الإنسان استقلالاً تاماً، فإن الثاني بالمقابل يعتبر الخلاص أمر منوط بالإنسان دون الاستعانة بأية قوى خارجية مستقلة عنه.

ويُعنى هذا البحث بتسليط الضوء على موقف فريدريك نيتشه إزاء مشكلة الخلاص؛ وهو الفيلسوف المعروف بنقده اللاذع لكل ماهو ديني، كما يُعنى بالوقوف على أبرز الأفكار التي قدمها والخطوات التي اتبعها في عرضه لإشكالية الخلاص.

أهمية البحث وأهدافه:

تكمن أهمية البحث في أنه يحاول أن يتحرك ويسلك مساراً مخالفاً لمعظم البحوث التي تناولت فكرة الخلاص بالدراسة والتحليل، فإذا كانت جلّ هذه البحوث على تنوعها واختلافها قد عالجت فكرة الخلاص في إطار هذا الدين أو ذاك، فإن هذا البحث يحاول أن يعرض لفكرة الخلاص عند نيتشه باعتبارها خلاصاً وتحرراً من الدين بحد ذاته.

ويهدف هذا البحث للإجابة على التساؤل الآتي، ما موقف نيتشه من الخلاص كما طرحته الأديان؟ وما الأسس التي نهض عليها الخلاص المعكوس عند نيتشه؟

منـاهــج البحث:

في محاولتنا للحديث عن موقف نيتشه من الخلاص وفق المنظور الديني، ومن ثم الوقوف على الخلاص بالمعنى النيتشوي إن صح التعبير سنختار اتباع المنهج التحليلي الذي من شأنه أن يعيننا على تحليل النص النيتشوي بغية الوقوف على غوامضه وخفاياه.

تتقسم معالجة الفيلسوف الألماني فريدريك نيتشه لمشكلة الخلاص إلى مرحلتين، الأولى تحدث فيها عن كيفية نشوء مفهوم الخلاص، وعن موقعه وأهميته بالنسبة لرجال الدين، بطريقة نقدية لا تخلو من السخرية والسخط، أما في المرحلة الثانية فقد عرض لمفهوم الخلاص كما يراه هو، موضحاً الخطوات والمراحل التي ينبغي على المرء التقيد بها للظفر به. وانطلاقاً من ذلك سنحاول تتبع نقد نيتشه لمفهوم الخلاص بالمعنى الديني، ومن ثم سنعمل على توضيح ما اقترحنا على تسميته بالخلاص المعكوس لدى نيتشه.

1. نقد مفهوم الخلاص بالمعنى الديني:

إن تتبعنا فكرة الخلاص منذ لحظة نشوئها وتكونها؛ سنجد أنها بدأت مع الشعوب البدائية التي كانت على جهل تام بالآلية التي تحدث بموجبها ظواهر الطّبيعة، فلم يكن إنسان تلك العصور يملك من الوعي ما يسمح له بالتّفكير في ظواهر الطّبيعة بحيث ينتهي به المطاف إلى معرفة الأسباب أو العلل الحقيقية الثاوية خلفها، ولم يكن إزاء هذا الوضع قادراً على التأكيد بأنّ شيئاً ما سيحدث أو سيكون بهذا الشّكل أو ذاك[1]، ووجد نفسه وجهاً لوجه أمام عالم مضطرب

1- نيتشه، فريدريك، إنسان مفرط في إنسانيته، "كتاب العقول الحرة"، الجزء الأول، ترجمة محمد الناجي، أفريقيا الشّرق، 2001، ص76-77.

ومتغيّر ، لايركن إلى حال من الأحوال، وسمته الغالبة هي التّحوّل والتّغيُّر، فكلما حاول أنيقبض عليه في محاولة منه لفهمه انسلّ من بين أصابعه وتوارى بعيداً عنه، وبات عصياً على كل معرفة.

وقد ولّد ذلك الخوف والقلق والرهبة داخل الإنسان، ولم يكن في ذهنه خطة واضحة المعالم ومحددة الخطوات يتوجب عليه اتباعها للخلاص من حالة الخوف تلك التي باتت تقض مضجعه، وبدلاً من البحث عن السّبب والعلة في عالمه الطبيعي لجأ في تعليله للظّواهر الطبيعة التي أقلقته إلى جواهر مفارقة [1]، بمعنى أنّ الإنسان البدائي لم يحاول تفسير ظواهر الطبيعة استناداً إلى أسبابها الحقيقية، بل افترض أنّ وراء كل ظاهرة إلهاً أو روحاً خفية هي المسؤولة عن حدوثها والتحكم بها.

و بات التخلص من حالة الخوف والقلق التي كان يكابدها الإنسان البدائي رهنٌ بإرضاء قوى خفية والتقرب منها وتقديم القرابين والأضاحي لها، «ومن هنا كانت التضحية بالمولود الأول في كل الديانات البدائية»[2]، وبذلك أصبح يتعامل مع كائنات خفية موجودة في عالم مفارق، يستعصي إدراكه بالحواس، وهو عالم أسمى من عالمنا الأرضي الذي نحيا بين ظهرانيه. فغدا الإنسان يحيا تحت رحمة قوى خفية صنعها بنفسه ولنفسه، وراح «يسجد أمام الشّيء الذي ابتدعه بنفسه»[3] وأسكنه عالماً آخراً مفارقاً لعالمنا الأرضي.

إذن فحاجة الإنسان للخلاص من حالة الخوف هي التي ولّدت لديه دافعاً قوياً لافتراض وجود عالم آخر يعج بالقوى الخفية أو الآلهة. وبعبارة أخرى يمكن القول إن الخوف والحاجة للخلاص هما الخطوة الحاسمة والسبب الرئيس لنشأة الدين[4]. والسؤال هنا ما مصير الدين فيما لو تخلص الإنسان من خوفه وقلقه بعد الوقوف على الأسباب الحقيقية الكامنة وراء ظواهر الطبيعة؟

لا شك أن وضع اليد على الأسباب الحقيقية التي تحدث بموجبها ظواهر الطبيعة عبر امتلاك الإنسان للمعرفة والعلم من شأنه أن يبدد خوفه ومعاناته، وهذا بدوره سيؤدي للحد من أثر الدين وقيمته في حياة الإنسان، فضلاً عن وضع حدّ لتدخل رجال الدين في حياة البشر، لكن رجل الدين تنبه لهذا الأمر وأدرك مبلغ الخطر الذي يتهدد وجوده، فسارع لتدارك هذا الخطر الذي من شأنه فيما لو اشتدت درجته أن يفقده ما يتمتع به من سلطان وحظوة لدى الناس المتدينين.

لقد حرص رجل الدين بغية الحفاظ على مكانته وسلطانه بين الناس المتدينين على إشاعة البؤس والفاقة بينهم، وحاول إقناعهم بأن «الله اصطفاهم واختارهم نظراً لبؤسهم» [5]، ولم يكن ذلك في حقيقة الأمر إلا حيلة منه لمنعهم من التفكير وتحصيل المعرفة، انطلاقاً من أن البؤس والفاقة يشغلان الإنسان في أمور تستنزف طاقته، وتشل قدرته، وتمنعه من التفكير.

فمنطق رجل الدين يقول: إن الإنسان بحاجة إلى وقت وإلى فائض من الوعي كي يكتسب المعرفة، وبالتالي لا بد من جعل الإنسان بائساً لإبعاده عن التفكير، وتصوير المعرفة على أنها خطيئته الأولى التي جرت عليه البؤس والشقاء، ألم

1- شتاينر، رودولف، نيتشه مكافحاً ضد عصره، ترجمة حسن صقر، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1998، ص54.

2- نيتشه، فريدريك، ما وراء الخير والشّر، ترجمة سليمان حسون، دار الكوثر، دمشق، ط1، 2009، ص94.

3- فينغ، أويغن، نيتشه والفلسفة، ترجمة الياس بديوي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1974، ص58.

4- نيتشه، فريدريك، إنسان مفرط في إنسانيته، مصدر سابق، ص75.

5- نيتشه، فريدريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة حسن قبيسي، د.ت، ص42.

يُطرَد الإنسان كعقاب له من الجنة عالم النعيم والسعادة إلى الأرض عالم البؤس والألم لأنه تجرأ على الأكل من شجرة المعرفة التي نهاه الله عن الاقتراب منها وتذوقها؟[1]

هذه هي حيل رجل الدين، إغراق الناس في مستنقع آثن من الجهل والألم والخطايا، ليتساءل الناس في نهاية المطاف عن المخلّص وعن سبيل الخلاص عندئذٍ فقط يطمئن رجل الدين مخاطباً إياهم، ها أنذا منقذكم ومخلصكم، أنا المؤتمن على مفاتيح خلاصكم، فمن أراد الظفر بالخلاص فليطعني، لأن طاعتي من طاعة الله تستوجب الثواب والمغفرة، ومعصيتي تجر العقاب لأنها معصية لله. ولعل هذا ما ذهب إليه نيتشه حين اعتبر أن نشر فكرة الخطيئة بات أمراً ضرورياً لكل مجتمع متدين، لأنها بالنسبة لرجل الدين الأداة الأفضل للظفر بالسلطة، ولذلك فهو بحاجة ماسة إلى أن تقترف بشكل دائم [2].

وللوقوف على الموقف الحقيقي لنيتشه من مفهوم الخلاص بالمعنى الديني حسبنا أن نعرّج على نقده لهذا المفهوم كما سوقته وروجت له الديانة المسيحية، التي اعتبرها نيتشه أقوى ظاهرة لتضليل غرائز الإنسان في تاريخ الفكر، هذا التضليل الذي يظهر بمثابة اختلاق لعالم آخر مثالي وبمثابة انتقاص، جرّاء ذلك، لقيم العالم الأرضي والحقيقي[3].

والجدير بالذكر أن نقد نيتشه لفكرة الخلاص في الدين المسيحي يندرج في إطار نقده للدين بشكل عام.

حين تناول نيتشه الديانة المسيحية بالنقد، فإنه توجه بالقسم الأكبر من هذا النقد إلى المسيحية كما قدمها القديسين ورجالات الكنيسة وعلى رأسهم القديس بولس، الذي يُعد حسب نيتشه أوّل من حرّف مقاصد المسيحية الحقيقية التي أتى بها يسوع الناصري، وذلك عندما حوّل ممارسة حياة القلب النقي إلى كنيسة بعجائب وكهنة ونظام مثوبات وعقوبات، فابتدع العالم الآخر ويوم الحساب والصعود إلى السّماء[4]، وكل ذلك للحط من قيمة الحياة على الأرض وازدرائها والزهد بها واضعاً بذلك أسس علم لاهوت جديد غرضه تحويل النّاس إلى قطيع ينساق وراءه، وباختصار «لقد أقام القديس بولس من جديد ما ألغاه المسيح بحياته وأعطاه أبعاداً هائلة» [5]، وبذلك أصبحت المسيحية مغايرة تماماً لما أتى به المسيح.

في الفقرة الثالثة من مؤلفه "نقيض المسيح" كتب نيتشه يقول: «لقد انحازت المسيحية لكل الضعفاء والوضيعين والفاشلين»[6]. من خلال هذا التصريح نلاحظ إقراراً من قبل نيتشه بأن الديانة المسيحية بوصفها طريقاً للخلاص كما يدّعي ممثليها ورجالاتها لم تنشأ وسط طبقات الناس العليا، بل وجدت وترعرعت بين طبقات الناس الدنيا، أي الضعفاء والفاشلين والمحرومين، فهي تبحث عن مريديها في الأماكن المظلمة، إنها كالعناكب التي تنسج شباكها في الزوايا المظلمة للإيقاع بفريستها، ومن ثم حقنها بالسم لشل حركتها، إنها تملك على حد تعبير نيتشه «حاسة تعرف بها أولئك

1- نيتشه، فريدريك، نقيض المسيح، ترجة علي مصباح، مقال اللعنة على المسيحية، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2011، ص109-111.

2- المصدر السابق، ص64.

3- فنك، أويغن، فلسفة نيتشه، مرجع سابق، ص161.

4- المرجع السابق، ص163.

5- نيتشه، فريدريك، إرادة القوّة، "محاولة لقلب كل القيم"، ترجمة وتقديم محمد الناجي، إفريقيا الشّرق، المغرب، 2011، ص101.

6- نيتشه، فريدريك، نقيض المسيح، مصدر سابق، ص28.

الذين يمكن دفعهم، بطريقة أو بأخرى إلى اليأس...إنها لا تفتأ تطاردهم، وتكمن لهم»[1]، فهي أشبه ما تكون بحيوان مفترس يسارع للإنقضاض على أضعف فريسة تقع في مرماه لعلمه المسبق بسهولة السيطرة عليها والتحكم بها.

ولم تكتفِ المسيحية ممثلة بقديسيها وكهنتها وقساوستها باستغلال حاجة البشر للخلاص بل زادت من ألمهم ألماً، ومن بؤسهم بؤساً، ومن شقائهم شقاءً، ولم يكن ذلك سوى لمضاعفة وزيادة رغبتهم بالخلاص، لأن زيادة الرغبة لدى البشر بالخلاص تعني زيادة حاجتهم إلى رجل الدين سواء أكان قساً أو كاهناً أو قديساً بوصفه المخلص المختار، وباختصار فإن معادلة رجل الدين المسيحي كما حددها نيتشه تقول: «لا بد أن نجعل الإنسان بائساً...عليه أن يتألم، وأن يظل يتألم على نحو يجعله دائم الحاجة إلى القس. ليذهب الأطباء إلى الجحيم! إنما المرء بحاجة إلى مخلص» [2]. ولكن ما السبيل إلى دفع المرء لمزيد من الألم والبؤس بغية مضاعفة رغبته في الخلاص؟

يجيب الكاهن لا سبيل إلى ذلك إلا بترسيخ مفهوم الخطيئة والذنب والعقاب، فضلاً عن تعاليم الرحمة والغفران. إلا أن أكثر ما أثار حنق نيتشه في موضوع الخلاص لدى المسيحية هو مفهوم الخطيئة، هذا ما عبّر عنه بالقول: «لقد تم ابتداع الخطيئة، ذلك الشكل الأمثل لتدنيس الإنسان، بهدف جعل العلم والثقافة وكل سمو بالإنسان وكل نبالة أمراً مستحيلاً؛ لقد بسط القس سلطان سيادته بواسطة ابتداع الخطيئة» [3]. إذاً فالخطيئة هي أكبر جريمة بحق الإنسان والحياة والثقافة، بالإضافة إلى كونها أفظع صيغة لانحطاطها جميعاً.

لقد تفننت الديانة المسيحية ورجالات كنائسها في تفسير مفهوم الخطيئة، فالمسيحية بحسب نيتشه «ديانة ليست محددة بالأخطاء فحسب، بل على درجة من الابتكار وحتى من العبقرية فقط في ابتداع الأخطاء» [4]، بالإضافة إلى براعتها في حث البشر على الإحساس بالذنب وتبكيت الضمير إزاء هذه الأخطاء لدرجة أنه لم يعد مهماً بالنسبة لرجل الدين أن يرتكب الإنسان الأخطاء بحق، بل يكفي أن يحس ويشعر في نفسه أنه خاطئ[5]، ومذنب، وأنه بأمس الحاجة للتكفير عن هذه الخطايا والتطهر منها، فلا يجد أمامه والحالة هذه من مخلص سوى رجل الدين الذي يقدم نفسه بوصفه الطبيب المخلص الذي سيشفيه من آلامه وخطاياه، ولكن كل ما يفعله هذا الطبيب هو أنه يعمل على تسكين الألم بشكل مؤقت دون الشفاء التام، لأن تماثل الإنسان إلى الشفاء التام يعني الصحة والقوة، فيفقد حينئذٍ هذا الطبيب المخادع ما له من سيطرة على مرضاه. فالشفاء النهائي من الأمراض والآلام والخطايا لن يتحقق في هذا العالم، بل في عالم سماوي تنتفي منه الآلام والحسرات بشكل نهائي. هكذا يخاطب رجل الدين مرضاه ليبقيهم دائمي التردد والزيارة لعيادته[6].

أتريد الخلاص؟ بهذا يتوجه القس أو الكاهن بالسؤال إلى الإنسان البائس، ليجيب هذا الأخير، نعم وبشدة، لكن خلاصك ليس في هذا العالم يقول له الكاهن، أين يتحقق خلاصي؟ يرد عليه البائس يهز الكاهن رأسه ممرراً يده على لحيته، ويجيب قائلاً في عالم آخر غير الذي نحيا عليه، إن خلاصك في العالم السماوي، يطأطأ البائس رأسه مردداً بصوت خافت، عالم آخر وسماوي! وآسفاه! أنّى لي أن ألجه وأرتقي إلى مدارجه؟ أليس هناك سبل في السماء تنفتح أمامي لألِجَ

1- نيتشه، فريدريك، الفجر،ترجمة محمد الناجي، أفريقيا الشّرق، الدار البيضاء، 2013، ص50.

2- نيتشه، فريدريك، نقيض المسيح، مصدر سابق، ص111.

3- المصدر السابق، ص112.

4- المصدر السابق، ص88.

5- المصدر السابق، ص55.

6 - بدوي، عبد الرحمن،نيتشه، خلاصة الفكر الأوربي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط5، 1975، ص191.

عبرها إلى وجود آخر وإلى سعادة أخرى[1]. بني، لاتحزن يقول رجل الين مخاطباً البائس، عليك بالمغفرة والعفة، عليك بمقارعة غرائزك وشهواتك والتنكر لها، عليك بمحاربة جسدك وحواسك.

فالديانة المسيحية صورت لرعاياها طريق الخلاص بالانسحاب إلى عالم آخر على أنه طريق وعر وشائك، يعج بالحفر والألغام، وهذا يتطلب من الإنسان الصبر والتأني، والتنكر لغرائزه وحاجاته، فضلاً عن إفقار جسده، وصم حواسه، كانت تنصحه بأن «يعمل على غرار السلحفاة على سحب حواسه إلى الداخل، وأن يقطع كل علاقة مع الأشياء الأرضية، وأن ينسلخ عن القشرة الفانية: وهكذا لا يتبقى من غير العنصر الجوهري: "الروح الخالصة"»[2]. هذا يعني أن المسيحية تهمل الجسد في مقابل الاهتمام بالروح أو النفس.

يصوّر لنا نيتشه العلاقة بين الرّوح والجّسد في ظل سيادة الديانة المسيحية بالقول «لقد كانت الرّوح فيما مضى تنظر إلى الجّسد نظرة الاحتقار...لقد كانت الرّوح تتمنى الجّسد ناحلاً جائعاً متوهمة أنها تتمكن بذلك من الانعتاق منه ومن الأرض التي يدب عليها، وما كانت تلك الرّوح إلا على مثال ما تشتهي لجسدها ناحلة قبيحة جائعة»[3]، وبهذا أصبحت المعادلة المسيحية لتحقيق الخلاص هي: اهمال الجّسد وافقاره وتجويعه ولجم غرائزه التي لا تعرف حدّاً تقف عنده، هذا من جهة، في مقابل نمو للروح وتعاظم دورها وإطلاق العنان لها من جهة أخرى، الأمر الذي سيؤدي بالنتيجة إلى هجر العالم الأرضي، عالم الفساد والخطيئة كما تراه، بغية تمهيد الطريق للولوج إلى عالم النعيم الأبدي. ولعل هذا ما جعل نيتشه يوجه إليها سهام نقده اللاذعة بأسلوب لا يخلو من سخرية قائلاً: «لكم سيكون لنا الحق في أن نحتقر ديانة تعلّم ازدراء الجسد! ديانة لا تريد التخلص من المعتقد السخيف المتعلق بالروح! والتي تجعل من سوء التغذية فضلاً! والتي ترى في العافية عدواً وشيطاناً وغواية تنهض لمحاربتها! ديانة قد أقنعت نفسها بأنه بإمكان المرء أن يحمل روحاً كاملة داخل جسد أشبه بالجثة»[4].

إذاً لقد تم إسقاط أمر الجسد نهائياً من سجلات الديانة المسيحية؛ الأمر الذي أفضى بها إلى تخطي الحواس على اعتبار أنّ عملها ينحصر في مجال الأشياء الأرضية، وأنّها تقتصر على المظاهر وتعجز عن إدراك الجواهر والماهيات، فضلاً عن إنّ«هذه الحواس...تخدعنا وتمنعنا من الاهتمام بالعالم الحقيقي»[5]، وتجعلنا ننغمس في العالم الأرضي عالم الكون والفساد، بأن تزينه لنا وتغرينا بألوانه الزائفة، وتدفعنا للإقبال عليه، لهذا رأى نيتشه في المسيحية بغضاء وحقد دفين على الحواس[6]، وقد صوّر لنا ذلك من خلال عرض موقف المسيحية من حاسة اللمس، هذا الموقف الذي يفصح عن كرهها المفرط للعالم الأرضي بقوله: إنّ المسيحية تكنّ بغضاً شديداً للحواس خاصة اللمس منها، فهي تخشى وتتراجع إلى الخلف لدى ملامسة كل ما هو صلب وخشن، وهذه الحالة الفيزيولوجية الأصل دفعتها إلى كراهية كل ما هو واقعي، وكل ما هو زماني ومكاني، والهروب إلى مالا يُعرف وإلى مالا يمكن فهمه[7] إلى عالم مجهول عصي على المعرفة والإدراك، عالم لا يمت للواقع بصلة، بل هو محض خيال وافتراء.

1 - نيتشه، فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فليكس فارس، دار القلم، بيروت، د.ت، ص 54.

2 - نيتشه، فريدريك،نقيض المسيح، مصدر سابق، ص42.

3- نيتشه، فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، مصدر سابق، ص33.

4- نيتشه، فريدريك، نقيض المسيح، مصدر سابق، ص115.

5- نيتشه، فريدريك، أفول الأصنام، ترجمة سليمان حسون، دار الكوثر، دمشق، ط1، 2009، ص26.

6- نيتشه، فريدريك، نقيض المسيح، مصدر سابق، ص53.

7- المصدر السابق، ص95-96.

وهذا ما جعلها برأي نيتشه بعيدة كل البعد عن الواقع، عن الأرض والحياة، فقوامها ليس إلا حشد من العلل الوهمية مثل الله، النفس، الذات؛ حشد من النّتائج الوهمية كالخطيئة والخلاص، والغفران؛ فتولد من جراء ذلك علم طبيعي وهمي يفتقر إلى مفهوم العلة الطّبيعية؛ وعلم نفس خيالي يقوم على فهم خاطئ للذات، وتأويل لأحاسيسها بلغة رمزية دينية؛ وعلم غائي ينادي بمفاهيم مثل مملكة الرب، والحساب الأخير، هذا ما تقوم عليه المسيحية، ولاشيء غير ذلك[1]، وهذا بمجمله شكل في رأي نيتشه عالماً وهمياًيعكس عمق الحقد الذي تكنه المسيحية للحياة الأرضية.

2.الخلاص المعكوس:

بعد أن وقفنا على نقد نيتشه لفكرة الخلاص بالمعنى الديني بشكل عام، وفي الديانة المسيحية بشكل خاص، ينبغي علينا أولاً أن نوضح معنى الخلاص المعكوس.

إذا كان مفهوم الخلاص بالمعنى الديني قد نهض على مجموعة من الأسس، من قبيل "الله، العالم الآخر... الخ، وإذا كان نيتشه قد اعتبر هذه الأسس عبارة عن أوهام تم ابتداعها وزرعها في مخيلة البشر بغرض السيطرة عليهم، ألا يعني ذلك أن فكرة الخلاص الدينية بدورها فكرة وهمية لاأساس لها على أرض الواقع ما دامت الأسس التي بنيت عليها وهمية؟

انطلاقاً من ذلك اتخذ نيتشه على عاتقه مهمة تحرير البشر المتدينين وتخليصهم من فكرة الخلاص التي رسخها الدين في أذهانهم أو ممن كانوا يعتقدون به كمخلص، ويتضح ذلك من خلال قوله في المتدينين: «ما كبلهم بالأصفاد إلا من دعوه مخلصاً لهم، وما أصفادهم إلا الوصايا الكاذبة والكلمات الوهمية، فليت لهؤلاء من يخلصهم من مخلصهم» [2]، لكن هدم هذه الفكرة، أي فكرة الخلاص بالمعنى الديني وتحرير البشر منها ليس بالأمر اليسير، فهو يقتضي هدم مجمل الأسس التي نهضت عليها وفي مقدمتها فكرة الإله، وفكرة العالم الآخر، وفكرة الاستخفاف بالجسد والحواس.

لقد شرعَ نيتشه بهدم الأفكار التي بني عليها مفهوم الخلاص بالمعنى الديني وتبيان تهافتها؛ ولتحقيق ذلك كان لا بد أن يهدم هذا المفهوم أولاً، وأن يؤسّس لإعادة الاعتبار للإنسان ثانياً، والعودة إلى العالم الأرضي بوصفه العالم الوحيد الذي لا بديل للإنسان عنه، فضلاً عن إعادة الاعتبار للجسد الإنساني الذي همّشه الدين، وبهذا لا يعود الخلاص علواً وفراراً من عالمنا المحسوس وحياتنا الأرضية إلى العالم الآخر، بل يتحول إلى حركة معاكسة، وعلو مقلوب، يتجه من أعلى إلى أسفل، فيحلّ معاني الأرض محل الحقيقة العالية [3]، وقد نوّه نيتشه إلى هذا الأمر في كتاباته أكثر من مرة، يقول يقول في مؤلّفِه "هكذا تكلم زرادشت": «لقد علمتني ذاتي عزة جديدة أعلمها الآن للناس: علمتني ألّا أخفي رأسي بعد الآن في رمال الأشياء السماوية، بل أرفعها رأساً عزيزة ترابية تبتدع معنى الأرض»[4]، وبهذا المعنى يكون نيتشه قد أحدث تحولاً جذرياً في مفهوم الخلاص. إنه الخلاص المعكوس الذي قصدناه. ولكن الظفر بهذا الخلاص المعكوس يستدعي اتباع عدة خطوات ومراحل لا بد من تقصيها في النص النيتشوي.

إن الخطوة الأولى والحاسمة على درب الخلاص المعكوس كما يرى نيتشه هو هجر الإنسان وتخليه عما يدعىبالعالم الماورائي، وهذا بالفعل ما قام به نيتشه من خلال دعواته المتكررة لبني البشر، بالتخلي عن جميع الماورائيات، والابتعاد

1-المصدر السابق، ص43.

2 - نيتشه، فريدريك،هكذا تكلم زرادشت، مصدر سابق، ص 117.

3- علي جعفر، صفاء عبد السلام، محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1999، ص467.

4- نيتشه، فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، مصدر سابق، ص54.

عن كل من يروّج لها ويتحدث باسمها في مقابل التشبث بكل ما يمثل حياتنا الأرضية «أتوسل إليكم أيها الأخوة أن تحتفظوا للأرض بإخلاصكم فلا تصدقوا من يمنونكم بآمال تتعالى فوقها، إنهم يعللونكم بالمحال فيدسون لكم السم، سواء أجهلوا أم عرفوا ما يعملون...لقد تعبت الأرض منهم فليقلعوا عنها»[1].

لكن نيتشه تنبه إلى أن التخلي عن العالم المفارق وهدم معظم أركانه لن يكون متاحاً مالم يتم إسقاط فكرة الإله التي يستمد منها العالم الماورائي مشروعيته، فإسقاط فكرة الإله من شأنه أن يؤدي إلى إسقاط جميع الأخرويات، والعوالم الماورائية [2]، وإسقاط هذه الأخيرة سيؤدي إلى حركة هجرة معاكسة اتجاه الحياة الأرضية بعد أن تخلى عنها الإنسان تحت تأثير وسيطرة الأفكار الدينية الماورائية. ومن هنا أتى إعلان نيتشه لموت الإله.

لقد أعلن نيتشه موت الاله كفكرة تم ابتداعها من قبل البشر، ففكرة الإله فكرة بشرية بامتياز وبهذا المعنى يقول نيتشه «ما كان هذا الإله إلّا إنساناً، بل جزءاً من شخصية إنسان، لأنّه نشأ من ترابي ومن لهبي»[3]؛ ففكرة الإله ليست إلا وهم أو افتراض ابتدعه خيال الإنسان المتعب والبائس، وعلق عليه آماله بالخلاص لعدم قدرته على تحمل مسؤولية نفسه، فضلاً عن عجزه عن التحرر من بؤسه وشقائه بشكل ذاتي. وبالتالي كان لا بد من العمل على إسقاط فكرة الإله.

بعد إسقاط فكرة الإله، تبدأ فكرة العالم الماورائي بالتهاوي شيئاً فشيئاً، وبهذا الخصوص يقول نيتشه في مؤلفه "أفول الأصنام" تحت عنوان "كيف أصبح العالم الحقيقي أخيراً خرافة" «العالم الحقيقي لا يمكن بلوغه؟ لا يمكن بلوغه بأي مقياس أو شكل. وكونه عصي على البلوغ فهو مجهول أيضاً. وكنتيجة لذلك فهو لا يمثل عزاءً ولا التزاماً: فلماذا نجبر على الالتزام بشيء لا نعرفه...العالم الحقيقي فكرة لم تعد جيدة لأي شيء، وليس حتى للإجبار فكرة أصبحت بلا فائدة مفندة: دعونا نلغيها»[4].

والسؤال هنا هل إسقاط فكرة الإله والعالم الآخر كافية لتحقيق الخلاص وتحويل الإنسان من كائن منفعل يرزح تحت عبء الماورائيات إلى كائن فاعل متحرر قادر على تحمل مسؤولياته دون الاستعانة طلب عون خارجي؟

لا شك أن تهاوي فكرة الإله والعالم الآخر تمثل تحولاً مهماً وضرورياً على طريق الخلاص، لكنها بحسب نيتشه غير كافية. وللوقوف على سبب ذلك يخبرنا نيتشه عن المراحل التي يمر بها الإنسان لتحقيق خلاصه، وإن كان تحدث عنها بأسلوب لا يخلو من الكناية والاستعارة اللذين يستلزمان التأويل. كتب نيتشه في مؤلفه "هكذا تكلم زرادشت" يقول: «سأشرح لكم تحوّل العقل في مراحله الثلاث فأنبئكم كيف استحال العقل جملاً، وكيف استحال الجمل أسداً، وكيف استحال الأسد أخيراً فصار ولداً»[5]، هذه التّحوّلات عبارة عن إشارات ورموز أراد نيتشه من خلالها وصف حال الإنسان منذ اللحظة التي آمن بها بوجود الإله، ووجود عوالم أخرى غير العالم الأرضي مروراً بمحاولته التخلص منهما فيما بعد، وصولاً إلى خلاصه التام واضطلاعه بعبء مسؤولياته.

1- المصدر السابق، ص33.

2- الدواي، عبد الرزاق، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2000، ص35.

3- نيتشه، فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، مصدر سابق، ص113.

4- نيتشه، فريدريك، أصول الأصنام، مصدر سابق، ص34.

5- نيتشه، فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، مصدر سابق، ص47.

فالعقل في هذه التحولات هو كناية عن الإنسان المؤمن بوجود الله والعالم الآخر، فهو في مراحله الأولى كالجمل الذي يبحث أثقل الأحمال فينيخ ظهره متوقعاً رفع خير حمل إليه [1]، والمقصود بالأحمال هنا جميع الالتزامات والواجبات الماورائية المفروضة على عقل المؤمن من الخارج، أي من الإله، ولكن حين يدرك العقل أو الإنسان المؤمن أن هذه الأحمال أثقلت كاهله، يسعى جاهداً للتخلص منها، وهنا يشبهه نيتشه بالجمل الذي يسارع إلى طريق الصّحراء عندما يُرفع الحمل عن ظهره، مندفعاً نحو صحرائه وهنالك في الصّحراء القافلة يتم التّحوّل الثاني فينقلب العقل أسداً، لأنّه يطمح نيل حريته وبسط سيادته على صحرائه[2]، والأسد هنا كناية عن الإنسان الذي تحرر من عبء الأحمال الثقيلة، فارتقى درجة على سلم التراتب الاجتماعي، ومن هنا وسمَهُ نيتشه بالإنسان الراقي، إلا أن هذا الإنسان على خلاف ما يظن لم يحقق بعد خلاصه النهائيكما يرى نيتشه.

فالإنسان الرّاقي حسب نيتشه هو إنسان منتصف الطريق، ولسان حاله يقول: «لقد خدمت هذا الإله حتى الساعة الأخيرة من حياته. وها أنذا أعتزل الآن ولا سيد لي، ولكنني لم أنل حريتي، لذلك أصبحت ولا أمل لي بالسعادة إلّا إذا تلمستها بأيامي الماضيات»[3]، فهو ما زال يحيا على خيالات الزّمن الماضي، ولكنه في الوقت نفسه يمثل المعبر والجسر الذي يفضي في نهاية المطاف إلى نيل الخلاص التام، ولعل هذا ما جعل نيتشه يتوجه إلى البشر الراقين بالقول «ما أنتم إلّا جسور يعبر عليها من هم خير منكم، ما أنتم إّلا مدارج يرقاها المتجه إلى الاعتلاء فوق ذاته»[4].

إذن، فموت الإله وإسقاط العوالم الماورائية لا يعني الخلاص التام للإنسان، لأن هذا التّحرر والخلاص ما يزال غير مكتمل، إذ أن اكتماله مرهون بالتخلص من ظل الإله الذي بقي مخيماً على عقول الناس بعد موته، وما يؤيد ذلك هو قول نيتشه: «بعد أن مات بوذا أُظهر ظله في مغارة طيلة قرون، وكان ظلاً رهيباً ومخيفاً. لقد مات الإله: لكن هاته هي طبيعة البشر بحيث ستكون هناك، ربما طيلة ألفيات، مغارات يُعرض فيها ظله. أما نحن فيجب علينا أن نهزم ظله كذلك»[5]. فمهمة الأسد لا تتجاوز تحرير النفس من ثقل القيم العليا التي أوجدتها فكرة الإله في عقل الإنسان والتي كوّنت عالماً مفارقاً، إلا أن هذه الحرية ليست المرحلة النّهائية، فهي حرية سلبية، إنها حرية إزاء شيء ما ولكنها لم تصبح بعد حرية لصالح شيء ما[6]، إنّها حرية تكفي فقط ليكون الأسد مستعداً للتحول الأخير وهو تحوله إلى طفل، والطفل هنا ليس إلا إشارة إلى البراءة والطهر، فتحول الأسد إلى طفل يعني تحرره التام وخلاصه النهائي من كل الأوهام الماورائية التي سممت عقله وحولته إلى حيوان مدجن.

خاتمة:

مما تقدم نخلص إلى القول إن حاجة الإنسان للاستمرار بالحياة وسط عالم فوضوي، هي السبب الرئيس الكامن وراء نشوء فكرة الخلاص، لكن رجل الدين بمكره المعهود عمل جاهداً على استغلال هذه الفكرة، رغبة منه في الحفاظ على مكانته، فضلاً عن تكريس سلطانه وحضوره، ومن هنا ابتكر فكرة الخطيئة الأولى، وأوحى إلى الإنسان بأن حياته في

1- المكان نفسه.

2- نيتشه، فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، مصدر سابق، ص48.

3- المصدر السابق، ص287.

4- المصدر السابق، ص310

5- نيتشه، فريدريك، العلم المرح، ترجمة حسان بورقيبة-محمد الناجي، أفريقيا الشّرق، ط1، 1993، ص122.

6- فنغ، أويغن، فلسفة نيتشه، مرجع سابق، ص80.

هذا العالم ليست سوى فرصة منحه الله إياها للتكفير عن هذه الخطيئة، وهذا لن يكون متيسراً له إلا بطاعة رجل الدين واتباع تعاليمه التي من شأنها أن تحقق له خلاصه المنشود.

ومن هنا كان نقد نيتشه لفكرة الخلاص بالمعنى الديني، منادياً بشكل آخر من أشكال الخلاص قوامه الدعوة إلى تحرر الإنسان من الإيمان بالماورائيات ومن هيمنة الأفكار الغيبية، ومن سجن القيم الدينية التي كبلت قواه. وبهذا المعنى يمكن القول إن الخلاص النيتشوي يمثل دعوة للإنسان كي يمتلك ذاته ويثق بحواسه، أن يحمل خلاصه على عاتقه ويتحمل مسؤولية ذاته، أن يتحرر من بؤسه وشقائه، أن يتشبث بتراب الأرض ويعتز بانتمائه إليها، إذ لا خلاص له خارج جنباتها.

المصادر والمراجع:

المصادر:

1. نيتشه، فريدريك، إرادة القوّة، "محاولة لقلب كل القيم"، ترجمة وتقديم محمد الناجي، إفريقيا الشّرق، المغرب، 2011.
2. نيتشه، فريدريك، أصل الأخلاق وفصلها، ترجمة حسن قبيسي، د.ت.
3. نيتشه، فريدريك، أفول الأصنام، ترجمة سليمان حسون، دار الكوثر، دمشق، ط1، 2009.
4. نيتشه، فريدريك، العلم المرح، ترجمة حسان بورقيبة–محمد الناجي، أفريقيا الشّرق، ط1، 1993.
5. نيتشه، فريدريك، الفجر، ترجمة محمد الناجي، أفريقيا الشّرق، الدار البيضاء، 2013.
6. نيتشه، فريدريك، إنسان مفرط في إنسانيته، "كتاب العقول الحرة"، الجزء الأول، ترجمة محمد الناجي، أفريقيا الشّرق، 2001.
7. نيتشه، فريدريك، ما وراء الخير والشّر، ترجمة سليمان حسون، دار الكوثر، دمشق، ط1، 2009.
8. نيتشه، فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فليكس فارس، دار القلم، بيروت، د.ت.
9. نيتشه، فريدريك، نقيض المسيح، ترجة علي مصباح، مقال اللعنة على المسيحية، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2011.

المراجع:

1. بدوي، عبد الرحمن، نيتشه، خلاصة الفكر الأوربي، وكالة المطبوعات، الكويت، ط5، 1975.
2. الدواي، عبد الرزاق، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر، "هيدجر، ليفي شتراوس، ميشيل فوكو"، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، 2000.
3. شتاينر، رودولف، نيتشه مكافحاً ضد عصره، ترجمة حسن صقر، دار الحصاد للنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 1998.
4. علي جعفر، صفاء عبد السلام، محاولة جديدة لقراءة فريدريش نيتشه، دار المعرفة الجامعية، مصر، 1999.
5. فينغ، أويغن، نيتشه والفلسفة، ترجمة الياس بديوي، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، 1974.

Sources

1. Nietzsche, Friedrich, The Will to Power, "An attempt to overthrow all values", translated and presented by Mohamed El-Nagy, East Africa, Morocco, 2011.
2. Nietzsche, Friedrich, The Origin and Separation of Ethics, translated by Hasan Qubaisi, D.T.
3. Nietzsche, Friedrich, The Evolution of Idols, translated by Suleiman Hassoun, Dar Al-Kawthar, Damascus, 1st edition, 2009.
4. Nietzsche, Friedrich, Fun Science, Translated by Hassan Bourguiba-Mohamed El-Nagy, East Africa, i 1, 1993.
5. Nietzsche, Friedrich, Dawn, translated by Mohamed El-Nagy, East Africa, Casablanca, 2013.
6. Nietzsche, Friedrich, An Excessive Humanity, "The Book of Free Minds," Part One, translated by Muhammad al-Naji, East Africa, 2001.
7. Nietzsche, Friedrich, Beyond Good and Evil, translated by Suleiman Hassoun, Dar Al-Kawthar, Damascus, 1st edition, 2009.
8. Nietzsche, Friedrich, This is how Zarathustra spoke, translated by Felix Fares, Dar Al-Qalam, Beirut, D.T.
9. Nietzsche, Friedrich, Antithesis of Christ, Tarja Ali Mesbah, A Curse of Christianity, Camel Publications, Beirut, 1st edition, 2011.

References:

1. Badawi, Abd al-Rahman, Nietzsche, Abstract of European Thought, Publications Agency, Kuwait, 5th edition, 1975.
2. Al-Daway, Abdel-Razzaq, The Death of Man in Contemporary Philosophical Discourse, "Heidegger, Levi Strauss, and Michel Foucault," Dar Al-Tale'ah for Printing and Publishing, Beirut, 2000.
3. Steiner, Rudolf, Nietzsche as a fighter against his time, translated by Hassan Saqr, Dar al-Hasad for publication and distribution, Damascus, 1st edition, 1998.
4. Ali Jaafar, Safaa Abdel Salam, a new attempt to read Friedrich Nietzsche, University Knowledge House, Egypt, 1999.
5. Feng, Eugen, Nietzsche and Philosophy, translated by Elias Bedoui, Publications of the Ministry of Culture and National Guidance, Damascus, 1974.